جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم التاريخ

دكتوراه اسلامي

المجابهة الاسلامية للحروب الصليبية

(الحملة الصليبية الخامسة)

أ.د. حنان عبد الرحمن طه

الحملة الصليبية الخامسة

بعد وفاة صلاح الدين الايوبي سرعان ما اندلع الصراع بين ابناءه وعمهم الملك العادل لكن ذكاء ودهاء العادل في استغلال تلك الخلافات وتوجيهها وبدا بسحب البساط من ابناء اخيه حتى تمكن من السيطرة على مصر وبلاد الشام فاصبح الرجل الاوحد وهذا الأمر دفع الأوربيين وتحديدا الكنيسة وراسها البابا انوسنت الثالث بالدعوة الى استعادة البيت المقدس من خلال السيطرة على مصر فاستجاب لدعوة البابا الامير الفرنسي حنا دي برين فتوجه الى بلاد الشام وهي رسالة للعادل بانه يستهدف الشام فما كان من العادل الا ترك مصر وتوجه الى الشام وصل الى دمشق وهنا مرض العادل وكان نائبه في مصر الملك الكامل حينذاك توجه الصليبيون الى مصر واستطاعوا من السيطرة على دمياط وحاصروها قرابة العام ،وفي غضون ذلك توفي الملك العادل ٦١٥هـ .

ولعل الذي فاقم الأوضاع شخصية الملك الكامل الضعيفة جعلته يقدم التنازلات لا يمكن تصورها فقد تنازل بكل ما قدمه صلاح الدين من تضحيات ودماء فقد عرض على الصليبين تسليمهم بيت المقدس وما فتحه صلاح الدين سابقا مقابل الانسحاب من دمياط وكان معظم الأمراء الصليبيون يميلون الى هذا العرض الا ان مندوب البابا في الجيش الصليبي بلاجيوس رفض العرض .كان الملك الكامل بعرضه هذا استثنى حصني الكرنك والشوبك رغم اهميتها الا ان الكامل لم يفكر بذلك بقدر ما كان يرى ملكه الذي وهبها له (الكرنك والشوبك) خاصة به. وكان الصليبيون قد سيطروا على دمياط قاصدين القاهرة الا ان الملك الكامل انشأ مدينة المنصورة لتكون خط الدفاع الأخيرة عن القاهرة لان سقوطها تعني سقوط مصر الا انه اهتدى إلى فكرة فتح السدود خلال فصل الصيف وهو موسم الفيضانات وغمرت القنوات والشوارع في المدينة فلم يجد الصليبيون الا والمياه محيطة بهم وبل حتى خيلهم ومؤنهم وفعلا عقد الصلح وهو الانسحاب من مصر وعدم القتال لمدة ثماني سنوات وبذلك لعب نهر النيل دور كبير في فشل الحملة الصليبية الخامسة .

لم ينس الصليبيون والغرب الأوروبي بيت المقدس، فأرسل البابا «أنوسنت الثالث» (٩٩٥هـ / ١١٨٩م – ٦١٣هـ / ١٢١٦م) إلى السلطان العادل الأيوبي يحذره بما سوف يحل من الغضب، ويحثه أن يتنازل فى هدوء عن بيت المقدس، لكن البابا توفى سنة (٦١٣هـ / ١٢١٦م)، وتولى مكانه البابا الجديد (هونريوس الثالث) (٦١٣هـ / ١٢١٦م – ٦٣٥هـ / ١٢٢٧م) الذى لم يمهل الرغبة في استعادة بيت المقدس، فبعد توليته البابوية ببضعة أيام كتب إلى الملك حنا دى برين الذي تزوج من «ماريا ابنة عموري الثاني ملك قبرص وبيت المقدس، وأصبح له حق المحاربة من أجل عرش بيت المقدس ، وفعلا اجتمعت جموع الصليبيين بعكا، فقرروا أن يقصدوا مصر أولاً ثم بعدها لا مانع من أخذ القدس وغيرها من البلاد، وتقرر أن تكون مدينة دمياط هي المكان الذى ستبدأ الحملة بغزوه والاستيلاء عليه؛ لأنها قفل الديار المصرية، خرجت الحملة الصليبية الخامسة من عكا (٦١٥هـ / ١٢١٨م) بقيادة الملك حنا دى برين، فوصلت أمام دمياط في صفر ٦١٥هـ / مايو ١٢١٨م فحاصرت دمياط ٩ أشهر، فاستولت على برج السلسلة أهم الحصون المائية لحماية دمياط من جهة البحر .

ولما علم السلطان العادل، باستيلاء الصليبيين على برج السلسلة على حد قول بعض المؤرخين (تأوه تأوها شديدًا، ودق بيده على صدره أسفا وحزنًا ومرض من ساعته ، ومات يوم الخميس سابع جمادى الآخر ٦١٥هـ / ١٢١٨م حزنًا وكمدا)، وبعد وفاة العادل استقل الملك الكامل، بحكم مصر، وإخوانه والمعظم عيسى حكم في دمشق و الأشرف موسى في حران، والأوحد في ميافارقين ، عندما علم الصليبيون في الغرب بهذا النصر أرسلوا المدد بقيادة الكاردينال بلاجيوس الذي وصل إلى مصر في ٦١٥هـ / ١٢١٨م " مندوبا عن البابا وقائدا على الصليبيين فى حملتهم على مصر، وأخذ الملك وحدث النصر والهزيمة لكل من المسلمين والصليبيين، وحدث أن نزل الصليبيون بالدلتا، يعمل الملك الكامل على عرقلة الصليبيين فاشتبك معهم عند العادلية الذى كان معسكرا بها لتستفيد من حالة الفوضى بعد نزول الصليبيين بالدلتا، فقطعوا الطرق وأغاروا على القرى فأعقب نزولهم حالة من الفوضى إذ نزحت من سيناء

الشرقية بعض قبائل البدو والأعراب ،العامل الأكبر الذى هدد الملك الكامل، أثناء تصديه للصليبيين على حدود دمياط، ونهبوا وأفسدوا وبالغوا في الإفساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج، على أن الكامل حال تعرضه للمؤامرة من بعض كبار أمرائه وعلى رأسهم عماد الدين أحمد بن على ويعرف بابن المشطوب، الذى كان أكبر أمير بمصر، وكان هدف المؤامرة هو «عزل الكامل، وإحلال أخيه الصغير «الفائز» بدلا منه لصغر سن «الفائز .

ليتمكن من السيطرة عليه وعلى الحكم، مما أدى إلى إضعاف عزيمة الكامل، في أول الأمر، وانقسام جيشه ثم هروبه من معسكره فى العادلية قاصداً مدينة أشموم طناح قرب دمياط لكن الله عز وجل لطف بالمسلمين، ذلك أن الملك المعظم عيسى استجاب لنداء أخيه الكامل وحضر إلى أشموم طناح وعلى حد قول ابن الأثير: (فقوى به قلبه، واشتد ظهره، وثبت جناحه، وأقام واستطاع الأخوان أن يتخلصا من أعدائهما، فقبض المعظم عيسى على ابن المشطوب وأرسله إلى الشام ، أما الفائز فطلب منه المعظم أن يسير إلى الملوك الأيوبيين بالشام والشرق رسولاً عن الملك الكامل) ليقضى لهم بعض المهام، وعلى حد قول بعض المؤرخين بسبب إرسال عساكر الإسلام لاستنقاذ دمياط وأرض مصر من الفرنج .

تقدم الجيش الإسلامي مرة أخرى لمواجهة الصليبيين المحاصرين لدمياط، لكنه فشل في زحزحتهم عن مكانهم أمام دمياط ، وحدث فجأة تغير فى سياسة الكامل، تجاه الصليبيين، ففتح باب المفاوضات بينه وبينهم وعرض عليهم أسخى عرض يمكن التقدم به وهو رد بيت المقدس وجميع ما كان صلاح الدين، استرده من بلاد الساحل، ما عدا الكرك والشوبك لأهميتها الإستراتيجية، وتسليم صليب الصلبوت الذى كان صلاح الدين، أخذه لما استولى على بيت المقدس، وعقد هدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثلاثين سنة، وذلك في مقابل أن ينسحب الصليبيون من الأراضى المصرية ، قبل حنا دي برين، قائد الحملة هذا العرض السخي الذى يحقق غرض الحملة، ولكن المندوب البابوى بلاجيوس رفضه .

و أخذ الملك الكامل، يكرر عرضه على الصليبيين مرة بعد مرة، نظرا لسوء موقفه وانخفاض فيضان النيل مما هدد البلاد بالمجاعة، ورغبة المعظم في العودة إلى الشام بالإضافة إلى سوء موقف حامية دمياط . لم يجد السلطان الكامل من وسيلة إلا الجهاد بعد أن رفض الصليبيون عروضه بسبب إصرار بلاجيوس، وسقطت دمياط في أيدي الصليبيين بعد حصار استمر تسعة أشهر كاملة، وبعد سقوط دمياط اتجه الملك المعظم إلى الشام، حيث أمر بتخريب بيت المقدس خوفًا من استيلاء الصليبيين عليها فخربت أسوار المدينة وأبراجها كلها إلا برج داود فشق على المسلمين تخريب القدس وأخذ دمياط .

حققت مكاسب طائلة بدخول الصليبيين دمياط ٦١٦هـ / ١٢١٩م، بعد ذلك قرر الصليبيون منازلة القاهرة واغتروا بما حصلوا عليه من مكاسب ورفضوا سماع الملك الكامل، ودخلوا وسط مثلث تحيط به المياه من جهات ثلاث، بحيرة المنزلة شرقا، وفرع دمياط غربا، والبحر الصغير جنوبًا، تلك الأرض التي تفيض بالمياه أثناء ارتفاع منسوب النيل، فدخل الصليبيون تلك الأرض ٦١٨هـ / ١٢٢١م وقت فيضان النيل وقسوة حرارة الجو، فقد كان لا معرفة لهم بحال أرض مصر ولا بأمر النيل .

هذا في الوقت الذى نقل الكامل معسكره من فارسكور إلى قبالة طلخا، حيث خيم بالمنزلة التي شيدها على الشاطئ الشرقي للنيل في مقابلة طلخا، وأطلق عليها اسم المنصورة تفاؤلاً بها من الانتصار على الصليبيين، انتهزها الكامل فرصة فأمر بقطع كل السدود وكان الماء زائدا جدا فلم يشعر الصليبيون إلا وقد غرقت أكثر الأرض المحيطة بهم وأرادوا العودة إلى دمياط فوجدوا أن المسلمين قطعوا الطريق عليهم، هكذا ساء موقف الصليبيين في دلتا النيل بعد أن فتح المسلمون السدود وحطموا الجسور فلم يبق أمامهم سوى الصلح بعد أن عاينوا الهلاك فأرسلوا إلى السلطان الكامل يعرضون عليه استعدادهم للجلاء عن دمياط وتسليمها له والخروج من مصر مقابل السماح لهم بالخروج من مأزقهم سالمين، ووافق الكامل على الصلح للأسباب الآتية؛

لأنه كان يتوقع وصول فريدريك الثاني إمبراطور ألمانيا لنجدة الصليبيين، ويخشى من اشتداد الأمر على المسلمين الذين قاتلوا لسنوات طويلة في مواجهة الصليبيين لكن على شرط أن يبعث إليه الصليبيون برهائن من ملوكهم لا من أمرائهم، فأرسل الصليبيون عشرين من كبراتهم من الملك الصليبي حنا دي برين والمندوب البابوي بلاجيوس، في حين بعث الكامل إليهم مقابل ذلك ابنه الصالح نجم الدين ومعه جماعة من خواصه، وأخيرا تم جلاء الصليبيين عن دمياط .(في ١٩ رجب ٦١٨هـ / ٧ سبتمبر (١٢٢١م

هكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة . فقد ذكر ابن الاثير في ذلك أن الله تعالى أتى المسلمين ظفرا لم يكن في حسابهم، فإنهم كانت غاية أمانيهم أن يسلموا البلاد التي أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط، فرزقهم الله إعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها